

## العمارة في الأندلس

ترتبط سلسلة التاريخ حلقات غريبة ، ومدنية الأندلس من أغرب هذه الحلقات وأقواها ، وما زالت تحيط بهذه المدينة قصص وأساطير ، يتناقلها الناس من قرون عدة ، ولم تأت البحوث التاريخية الحديثة بما يحط من شأن هذه الأساطير ، أو يخفف من زهاء تلك المدينة . ويكاد المرء يتصور خيالاً ما كانت عليه هذه البلاد من العظمة والسمو ، أو يحسب مغالاة ما لا حصر لعدده بمن أظلتهم من رجال بارزين ، في العلم والأدب والدين والفن والفلسفة والسياسة ، وفي كل نواحي الحياة والتفكير . ومع ذلك فأثارهم وفنونهم أصدق دليل على حقيقة هذا الخيال .

ازدهرت الفنون في الأندلس بتولى عبد الرحمن بن معاوية الحكم فيها وبقيام دولة إسلامية كان لها شأن كبير في تاريخ تلك البلاد بل في التاريخ عامة . وكانت قرطبة عاصمة هذه الدولة ، يحدثنا المؤرخون عنها ، أنها كانت أم المدائن وسرة الأندلس ، ومدينة العلم ومعدن العلماء ، وأنها كانت آهلة بالسكان ، واسعة المسالك ، فسيحة الأسواق ، بهيجة المظهر ، زاهية المباني والعمارة ، كثيرة الرياض والبساتين . وأن بها جامعاً ليس في بلاد الإسلام أعظم منه ، ولا أعجب بناء وأتقن صنعة .

ولم يخطئ المؤرخون أو يغالوا ؛ فما زال مسجد قرطبة أنعم المساجد وأعظمها . أقامه عبد الرحمن بن معاوية سنة ٧٨٦ ميلادية ، على أنقاض المسجد العتيق ، وزيد فيه بعد ذلك مرة أولى ، في عصر عبد الرحمن الأوسط سنة ٨٣٣ ، ومرة ثانية في عصر الحكم المستنصر بالله سنة ٩٦١ ، ومرة ثالثة بعد ذلك بست وعشرين سنة على عهد المنصور ، ولي الخليفة هشام بن الحكم . وقد تضاعفت مساحة المسجد ما يقرب من ثلاث مرات في هاتين المئتين من السنين .

وللمسجد تسعة عشر رواقاً ، عرض كل منها سبعة أمتار تقريباً ، ما عدا رواق المحراب فعرضه يقرب من ثمانية أمتار . ويحف بالأروقة من كل جانب صف من الأعمدة ، رصّ عليه منها اثنان وثلاثون . فالداخل إلى المسجد من صحنه ، يجتاز واحداً وثلاثين أسكوباً حتى يصل إلى المحراب . وعرض كل أسكوب يقرب من ثلاثة أمتار . وجدار القبلة في المسجد يمتد على مائة وثلاثين متراً . أما أسواره الجانبية فطول كل منها مائة وثمانون ، أى أنه مستطيل يزيد طول مجموع أضلعه عن ستمائة متر .

وبالمسجد تسعة عشر باباً ، ينفذ منها عشرة إلى بيت الصلاة ، والباقي إلى البهو . أما بيت الصلاة فيه ، فكان يتسع وحده لأكثر من خمس وعشرين ألفاً من المصلين ، ويتسع بهو المسجد لما يقرب من نصف هذا العدد . وتمتد في بيت الصلاة أكثر من ستمائة عقد ، ترتفع فوقها السقف وتُظَل من تحتها مساحة أربعة أفدنة ، هى مساحة بيت الصلاة .

وإذا كانت هذه الأرقام تدل على ضخامة هذا المسجد وسعته ، مما لم يصل إليه أى مسجد آخر من مساجد الإسلام ، فإن العناية بعناصر بنيانه ، تدلنا على مبلغ فخامته ومدى أهميته الفنية .

فالداخل إلى مسجد قرطبة ، تأخذ روعة يقصر التعبير عنها ، ويهيبه انتشار الأعمدة إلى ما لا يدرك النظر مداه ، وتعددها إلى ما لا حصر لعدده ، ويدهشه العناية الفائقة بالبناء ، والوحدة الشاملة جميع أطرافه ، ويخيل إليه أنه يتجول في غابة واسعة الفضاء ، رهيبة السكون ، غرست أشجارها بنظام محكم ، وترتيب جميل .

أما هذه الأعمدة ، فقد انتزع جزء كبير منها من آثار سابقة للإسلام ، وجلب البعض الآخر من بلاد المغرب الأقصى ومن غيرها من البلدان ، فليس معظمها من الفن الأندلسي فى شىء . ولكن إبداع هذا الفن ، يتجلى أولاً فى تنسيق هذه الأعمدة بما يشعر بالرهبة والجلال ، ويتجلى ثانياً فى ابتكار موفق توصل إليه ببناء المسجد الأول ، فى عصر عبد الرحمن الداخل . ذلك أن الأعمدة التى استعان بها هذا الأمير فى إقامة المسجد قصيرة ، بحيث يقرب ارتفاعها من ثلاثة أمتار ، وكان يتطلب العمل منه أن يقيم عليها عقوداً ، ويمدّ على هذه سقف المسجد ، وإن امتدت السقف على هذا الارتفاع القليل ، لم ينفذ الضوء

ولا الهواء إلى بيت الصلاة ؛ إذ أنه يخلو من النوافذ ولا يصل إليه الضوء إلا من البهو ، وجدار القبلة كان يبعد حينئذ عن هذا البهو أربعين متراً . وقد هدى البحث ببناء قرطبة إلى أن يقيم على هذه الأعمدة القصيرة دعائم فيتضاعف ارتفاعها ، ويقيم على هذه الدعائم عقوداً توصل بها أن يرفع السقف على ارتفاع يقرب من ثلاثة أضعاف ارتفاع الأعمدة . وأقام بين رؤوس الأعمدة صفّاً ثانياً من العقود تستند عليه الدعائم . وهكذا وصل الضوء وفيراً إلى أرجاء بيت الصلاة حتى بعد امتداد هذا البيت وابتعاد المحراب عن البهو الذي هو منبع الضوء لهذا البيت بما يزيد عن مائة من الأمتار . والفضل في هذا يرجع إلى ابتكار فكرة العقود المزدوجة . وهذه الفكرة التي اتبعتها البناة في مسجد قرطبة عند زيادته في العصور التالية لم يكن لها نظير في أي بناء سابق .

ولهذا البناء المبكر شأن كبير في العمارة الإسلامية ؛ فهو لم يكتف بهذا الابتكار بل أضاف إليه ابتكاراً آخراً . ذلك أن الحجارة لم تكن وفيرة عند شروعه في البناء فاحتال على ذلك باستخدام الآجر ، ولكنه استعان به على وجه جعل عقود مسجد قرطبة فريدة في التاريخ ، تتناوب فيها ثماني قطع من الحجارة البيضاء مع ثمانية صفوف من الآجر الأحمر . وكان لهذا مظهر زخرفي جميل ، انتشر في العمارة الإسلامية ، وأخذ عنها البناة في أوروبا في العصور الوسطى . وهذا المظهر الزخرفي الذي يبدو في غير تصنع أو حلية خارجية ، هذا التناوب في الألوان ، لم يكن له نظير في أي بناء سابق . وبالرغم من بساطة الفكرة ففضل ابتكارها يرجع إلى بناء مسجد قرطبة .

ولهذه العقود ميزات أخرى ، فالصف الأول منها عقود متجاوزة ، وهي الشبيهة بمجدية الفرس ، وهي عقود ابتكرها الفن الإسلامي في عناصر العمارة ، وعم استعمالها في بلاد المغرب والأندلس حتى أصبحت عنصراً هينئاً للعمارة في هذه البلاد .

ونجد من العقود في مسجد قرطبة أشكالاً أخرى ، يزداد بها بيت الصلاة رونقاً وبهاء . فقد تجزأ العقد إلى ثلاث فتحات أو ثلاث أسنة ، فكأنه ورقة من الأزهار ترتسم في الفضاء . وهذا عنصر آخر من العمارة والزخارف يرجع الفضل إلى الفن الأندلسي في تنسيقه ونشره . وكان هذا العنصر محبباً إلى رجال الفن ، وكانهم أرادوا أن يؤكدوا تعلقهم به ، فوضعوه في مكان الشرف من

مسجد قرطبة أمام اسطوانة المحراب وحول عقود قبتة . وإنما قلما نلتقى في المهارة الإسلامية عنصراً أجمل شكلاً منه أو أنقى حدوداً . ولا شك في أن الفكرة الأولى في ابتكار هذا الشكل كانت فكرة حسابية هندسية ، ترتكز على قواعد التجزئة والتكرار . فنصف الدائرة هنا مقسم إلى ثلاثة أو خمسة أجزاء من أنصاف دوائر . ولكن الهندسة تركت المجال للخيال ، فكانت هذه العقود أغصان تتفرع من الأعمدة ، وتلتوى في ارتقاها إلى القباب ، أو كأنها في الفضاء أهلة تعكس الضوء وتضئ الظلام .

وتشابكت العقود من ناحية ، وتعددت أنواعها من ناحية أخرى ، وتجزأت وحداتها ، ولم تجتمع بأشكالها كلها ، يمثل الإبداع الذي اجتمعت به ، في المقصورة المجاورة لمحراب قرطبة ، والتي تنسب اليوم إلى القديس فرناندو . في هذه المقصورة ارتقت العمدة الواحد فوق الآخر ، كما ارتقت العقود وتشعبت ، بحيث لا يدرك النظر أين تبتدىء وأين تنتهى .

وزى في الصف الأعلى من هذه المقصورة عقوداً على شكل حديدية الفرس وأخرى على شكل ورقة الزهرة المقصوصة إلى ثلاث وريقات ، ونشاهد على جوانب هذه المقصورة نوعاً من العقود المسننة ، قص كأنه الصخر حفرتة الأمواج .

كان عصر الحكم بن هشام من أزهى عصور الأندلس وأكثرها نقامة . ويتحدث المؤرخون عن هذا العصر بما لا يكاد يصدق العقل ، إلا أن هذا الخليفة ترك في مسجد قرطبة صفحة لا يشوبها الشك وصورة واضحة لعصره .

ولست أعرف في تاريخ المهارة قبة أبدع تكويناً وأجمل مظهرًا من قبة المحراب التي أقامها هذا الخليفة . وهي على حد قول أحد المؤرخين الأقدمين « مؤللة ، مهللة كأنها تيجان ، رصع فيها ياقوت ومرجان » . وإبداع هذه القبة يعجز البيان عن وصفه . فلم يترك البناء ولم يترك الفنان ركنًا فيها أو سطحاً إلا كسواه حلية ثمينة ، أو أضافا إليه عنصراً يزيد جمالا . إن دلت هذه القبة على شيء فهي تدل على سعة الخيال الفنى عن البناء المسلم . لقد استطاع أن يجعل من القباب ، وهي عنصر معمارى شاق التنفيذ ثقيل التكوين ، استطاع أن يجعل منها تاجاً محكم الوضع بديع الصناعة ، واستبدل بالكتلة الثقيلة في هذه القبة هيكلًا جعل ما بين ضلوعه حشواً أو غلافًا رقيقاً . هذا الخيال الفنى يرى الجمال في كل شيء ، ويرى

الجمال في الخفة والحركة ، حتى في أشد العناصر تطلباً للثبات ، وفي أقربها للجمود ، ينصب الخيال عليها فيجزئها ثم يربطها ويصل بين ما انفك منها ، ويجعلها شبكة من الخطوط متحركة ، أو كأنها كذلك ، ويكسوها بجمالية تستمد جمالها من تنوع أشكالها ، ويفرض على هذا كله فكرته في الطبيعة فكرة اللانهاية .

أما محراب قرطبة ، فقد قال فيه أحد المؤرخين المسلمين إنه : « قد قوس أحكم تقويس ، ووشم بمثل ريش الطواويس ؛ حتى كأنه بالجرّة مقرطق ، وبقوس قرح بمنطق ، وكأنّ الازورد حول وشومه ، وبين رسومه ، تنف من قوادم الحمام ، أو كسف من ظلل الغمام » .

ولهذا المحراب قصة ؛ فقد قيل إن الحكم طلب من إمبراطور بيزنطة أن يرسل إليه بفسيفساء يحلى بها المسجد ، فأرسل إليه الإمبراطور ما أراد ، وأرسل مع قطع الزجاج المذهبة ، عاملاً علياً بسر تنسيقها ، وأن هذا العامل استخدم معه عاملين من الأندلس ، فمألبنا أن تفوقا عليه في صناعته . والمستشرقون يصدقون النصف الأول من هذه القصة وينكرون على رجل الأندلس مهارتهما في تعلم هذا الفن الجديد . أما أنا فأصدق القصة بأكملها ، وليس من المعالاة أن نصدق أن الذي أحكم إطار المحراب ، وأبدع تنسيقه ، وحلاه بالرسم ، وجمله بالكتابة ، أعجزه أن يرص الفسيفساء حولها ، أو يتعلم رصها بمهارة ، وهو هذا العامل الأندلسي الذي أعد لدار المحراب لوحات من الرخام ، منحوتة بركة فائقة ودقة ظاهرة ، تنفرع الأغصان عليها من شجرة الحياة ، فكأنها غلالة بديعة التطريز ، تتدلى على جدار المحراب .

ولن يعمل المرء التجول داخل مسجد قرطبة ، وفي كل خطوة يخطوها يستوقف نظره كل بديع ورائع ، وتحيي أمامه ذكرى الجلال والعظمة . والخارج إلى صحن المسجد ، تاخذه حسرة ما ترك ، ولكنه يجد فيه صدى للهدوء والسكينة التي أحاطت بتجواله في الداخل ، ويرى في رسم العقود وجمال نسبها ، ما يشغله عن أشجار البرتقال وثمارها .

وإذا خرج إلى أسوار المسجد ، دفعته إلى زهة طويلة ، ليسبح النظر من جمال الزخارف وتنوعها ، فهي تكسو الجدران بثياب ثمينة . وكان تقوشها توقيعات تحث السائر من جهة ، وتدفعه من جهة أخرى ، من باب إلى باب ، فيستوقفه جمال الرسم ، ودقة الحدود ، وتنوع الألوان ، وبساطة المظهر أمام

إحدى البوابات التي ترجع إلى العصر الأول لبناء المسجد ، أو يشغله امتلاء المسطحات ، على بوابة أخرى ، فلا يقع نظره إلا على لون زاه ، أو خط ملتو ، أو غصن حائر ، أو مادة ثمينة ، أو إطار بديع ، أو رسوم متشابكة ، أو كتابة جميلة ، أو أعمدة متراسة ، أو عقود منتشرة ، كل هذا اجتمع في مكان واحد ، وانتشر على المسطحات كلها ، في حركة دائمة ، وتنوع مستمر ، يطرد الملل ، ويثير الإعجاب .

وثمار هذا الإعجاب باق على مضي السنين . فسجد قرطبة ، فريد بين آثار المعمارة كلها ، ولن نجد أثراً مثله ، ينطق وحده بتاريخ دولة بأسرها . وقد لا نجد مصداقاً أفضل من مسجد قرطبة لقول الشاعر :

هم الملوك إذا أرادوا ذكرها من بعدهم فبالسن البنيان

وقد لا نجد معبداً له روعة هذا المعبد . أما من الوجهة المعمارية ، فقد تعدى أثره فنون الشرق إلى الغرب ، وترك على كثير من آثار أوروبا طابع الإسلام ، وظل صفحة ناصعة من المدنية الإسلامية ، لا يشوب وحدتها إلا ما أصابه من الهدم والإضافة ، عند سقوط قرطبة في أيدي الأسبان ، وإقامة كنيسة في وسط بيت الصلاة ، لما رآها الإمبراطور شارل كان ، حزن وغضب وقال للكهننة : « أقم هنا ما يرى الناس مثله في كل مكان ، وهدمتم ما لا نظير له في العالم » .

تعددت المساجد في الأندلس وابتنيت القصور ، والكثير منها قد اندثر ، ولم يبق إلا أن نقرأ عنه في كتب المؤرخين . ومن هذه القصور قصر في مدينة الزهراء التي أقامها عبد الرحمن الناصر ، في النصف الأول من القرن الرابع الهجري والتي استغرق بناؤها مدة خمسة وعشرين عاماً ، وقد قدرت النفقة فيها بثلاثمائة ألف دينار في كل عام ، وجلب إليها الرخام الفاخر من جميع البلاد ، « وتضمنت العجيب من إتقان الصنعة ، ونخامة الهمة ، وحسن المستشرف ، وبراعة الملبس والحلة ، ما بين مرمر مسنون ، وذهب موضوع ، وعمد كأنما فرغت في القوالب ، ونقوش كالرياض ، وورك عظيمة محكمة الصنعة وحياض ، وتماثيل عجيبية الأشخاص لا تهدى الأوهام إلى سبيل استقصاء التعبير عنها » .

أشاد المؤرخون ممن شاهدوا هذه المدينة في وصف بدائعها ، وقد كشف عن آثارها منذ أعوام ، وكتب أحد علماء الآثار في أسبانيا : « إن الحفائر في مدينة الزهراء تكشف لنا جديداً كل يوم ، فتزداد ثقة بصحة ما رواه المؤرخون ». وقد تجولت بين آثار هذه المدينة مراراً ، وشاهدت موضع دورها وقصورها ، وبساتينها وجداولها وبركها ، وكثيراً مما يتحدث عنه ابن خلدون وغيره من المؤرخين . وأستطيع أن أوكد أن العناية ببناء هذه المدينة فاقت كل حد ، وأنه لم يترك بها حائط إلا ألبس حلة المرمر المسنون ، أو ألواح من الحجارة المنحوتة ، وأن هذه الزخارف قد تنوعت بحيث تكوّن وحدها مجموعة شاملة للزخارف الإسلامية . وأول ما يسترعى النظر فيها تصويرها للأزهار والنباتات والثمار ، كأنما أرادوا أن تتسلق الأغصان على الجدران ، أو كأنهم لم يقنعوا بجمال الطبيعة في بساتينهم ، فأرادوا أن تنطبع صورها في دورهم ، فلا يفرغوا من التأمل فيها .

ويدلنا هذا على أن الروح الفنية كانت متشعبة من النفوس ؛ فلم تكن مظاهر أريد بها بهر النظر ، وإدخال الروعة في القلوب . وأقوال المؤرخين شهيدة على ذلك ؛ فقد أثبتوا اتباع الناس خلفاءهم في تعلقهم بالفنون ، وتنشيطهم للبناء . وكان الرحالة من المسلمين يضعون في الصف الأول بين فضائل البلاد التي وصفوها ، ما كانت تظهر عليه مبانيها من العظمة والفخامة ، وجمال التنسيق ، وحسن الهندسة . ولهذا فقد أشادوا ببدائع الأندلس ، وأطنبوا في ذكر آثارها وعددوا مناقب مدنها ، ومن بينها سرقسطة . أصاب قصرها من صروف الزمن ما لم يبق منه إلا طرفٌ توثقها المتاحف . وكان أقام هذا القصر الأمير أبو جعفر المقتدر ، وعنى ببنائه عناية تتضح من آثاره . ويتجلى الجمال من رشاقة زخارفه ومن درجة الإتقان والدقة التي صنعت بها ، ومن الخفة البديعة التي أفرغت فيها ، وقد أخذت يد الفنان تتلاعب في الخطوط بحرية كبيرة ، وانصب الخيال عليها فجعل من الأقواس والخطوط شبكة ترتقى على الجدران كأنها أغصان وفروع ، تتناثر منها الأوراق والأزهار . وربط الخيال بالحقيقة ، إذ فرغ الزخارف بالتخريم ، فأنفذ إليها الهواء ، فكأنها أغصان تهتز وتتحرك ، بخفة وانسياب .

وإذا انتقلنا من سرقسطة إلى قصر الحمراء في غرناطة ، تجل لنا الإبداع بمظهر الثراء والفخامة . ويحيل إلى السأخ أن هذا القصر صفة ما أخرجته العمارة الإسلامية في الأندلس ، إلا أن هذا يرجع إلى ما علق بأذهان الناس مما كان يدور في هذا القصر من الحوادث والأحداث . وكان قصر الحمراء مدينة قائمة بذاتها ، وحصناً منيعاً للسلطين . أقيم في القرن الرابع عشر ، على عهد أسرة بني الأحمر أو بني نصر ، أمراء غرناطة ، واحتفظ بروائع بالرغم مما لحقه من التعديل في العصور الحديثة . وهذه الروائع تتبعنا أينما حللنا به ، فإذا مررنا بقاعة السفراء ، أو انتقلنا إلى قاعة الشقيقتين ، شعرنا بالثراء والفخامة إلى أقصى حد . تتدلى من السقف في كل مكان حلقة بهية من المقرنصات ، كأنها أوكار في الأشجار ، تتساقط على العمدة كأنها أغصان ، وترتقى العقود في قاعة الخلقة ، فكأن الطير تسكنها ، وكأنها تغرد في كل مكان . وقد شبهت هذه العقود « بتيجان تتحلل بها رؤوس العرائس في الأفراح » . وما أحسب أن العمدة في العمارة ، كانت يوماً ما أبدع مما نراها عليه في الأروقة المحيطة بهو السباع ، مشوقة البدن ، رفيعة القوام ، والناظر إليها يحيل إليه أن رؤوسها لن تقوى على حمل العقود . ولعل بهو السباع قد فقت شهرته كل بناء . وهو من أعمال السلطان محمد بن يوسف الذي بوع صبيئاً ، ودام حكمه ما يقرب من أربعين سنة ، استتب فيها السلطان لأسرة بني نصر ، بالرغم من الدسائس والثورات والحروب ، ونلقى صدى هذا الاستقرار في قصر الحمراء . اشتق اسم هذا البهو من النافورة التي يحيط بها اثنا عشر تمثالاً لسباع من الرخام ، تفتح أفواهها فينصب الماء منها ، ويجرى من فوقها وحوها بشكل يثير الإعجاب . وهذه النافورة أنموذج لما كانت تحويه قصور الأندلس ، وهي لاشك أقل فخامة من كثير غيرها . فقد كانت في قصر الزهراء الذي تحدثنا عنه نافورة صغيرة منقوشة ومنحوت عليها ، « اثنا عشر تمثالاً من الذهب الأحمر مرصعة بالدر النفيس الغالي » . ويقول المؤرخون إن هذه التماثيل الذهبية « كانت صوراً لاثني عشر حيواناً وطائراً مختلفاً وكان الماء يخرج من أفواهها » .

وجمال هذا البهو في الأروقة المحيطة به ، والتي تطل عليه بعقود مختلفة الرسم ، تعددت أسنتها وطالت أطرافها ، وظهر منها المقوس المتجاوز ، والمدبب المنكسر ، والذي يجمع بين هذين الشكلين . وقامت فيها الأعمدة منفردة تارة ،

ومزدوجة تارة أخرى ، وتوجت رؤوسها بتيجان أندلسية ، تكسوها الزخارف  
 النباتية ، وتلتف حولها أشرطة منسقة ، وارتفعت من فوقها الحدائر ، حملت  
 عمداً صغيرة ، تنبت منها أوكار العقود والسقف ، كأنها لهيب يخرج من المواقد .  
 هذه الزخارف المتناهية رقة وإتقاناً ، يزيد بها جمالا تنوع ألوانها ، من أحمر  
 قاتم ، وأزرق وأبيض ونذهب وأسود . وبقصر الحمراء صور آدمية رسمت على  
 القباب ، تمثل إحداها مجلس السلطان ، والأخرى أسطورة من أساطير الحب .  
 وليس للتصوير في الإسلام نظير لهذه الصور .  
 وكذلك ليس لآثار العمارة في الأندلس نظائر في الفن الإسلامي ؛ إذ أنه كان  
 لها طابع خاص . ولعل فيما قرأناه عن بعض هذه الآثار صورة لما كان يسجله  
 هذا الطابع في مدينة الأندلس ، من مجد ونخامة ، ورقة ورخاء .

أحمد فكري

وبناحي طينها الساري على تلك الخراب  
 فالغدا على العلى نلبس التيمم ليلنا الكليل  
 ولتشتا تلبعد في العلى شاعر  
 في لهة في العلى والخيل في العلى  
 ولما انه في بطا في العلى في العلى

أقبلت ليلتي كالسحر جهاد وسيف  
 أنزل من العلى العلى في العلى  
 أنزل من العلى العلى في العلى  
 واسكني الأفراح في قلبي ، فقد ذاب بكاء

وأعيدني إلى عشي ، فقد طال افتراق  
 وبقيت في العلى العلى في العلى  
 أنا في العلى وأنا في العلى  
 العلى في العلى العلى في العلى  
 العلى في العلى العلى في العلى

البلاد التي تطبقها العلى العلى في العلى  
 في العلى العلى العلى في العلى